

كلمة . . .

بقلم الدكتور طه حسين

ذهب كاتب فرنسي معروف إلى مدينة مترفة من هذه المدن التي يهرع إليها الأغنياء إذا كان الصيف يستشفون بمياهها من بعض العلل التي يجرها الترف على المترفين أو يتكلفون الاستشفاء فقد ينبغي للمترف المرفه أن تكون به علة ولو ضئيلة تثير في نفسه كثيرا من الهم وتظهره مظهر الذين يؤرق المرض ليلهم وينغص نهارهم ويزهدهم في الاستمتاع بطيبات الحياة إشفاقا على أنفسهم من هذه العلة الواقعة أو المتكلفة ولا ينبغي للمترف أن يكون ظاهر الصحة موفور العافية يضرب في شؤون الحياة جادا كادا وعاملا كادحا كما يضرب غير المترفين من الناس . ولا ينبغي له كذلك أن يظهر فرحا مرحا ناعما بما أتيح له من العافية في بدنه ونفسه فيحسده الحاسدون ويطمع في مثل حياته الطامعون وإنما الحق عليه لنفسه أن تكون مشغولة ولقلبه أن يكون مهموما وجسمه أن يكون معتلا ليراه الناس فيرحموه ويشفقوا عليه ويضنوا بأنفسهم على هذا الترف الذي يشغل النفوس ويملا القلوب حزنا ويعرض الأجسام لألوان من السقام .

ذهب هذا الكاتب الفرنسي المعروف إلى هذه المدينة المترفة من مدن الجبل الفرنسي أثناء هذا الصيف . ولست أدري اذهب مستشفيا لأن له حظا من ترف أم ذهب مستروحا يريد أن يتخفف من القيظ أم ذهب مضطربا في شؤون حياته يلتمس موضوعا لقصة من قصصه أو لكتاب من كتبه فالكاتب المتقن لفنه يلتمس الانتاج حيث استطاع إليه سبيلا ، وكاتبنا هذا قد وصف طائفة من البيئات الإنسانية المختلفة ، وصف بيئة البائسين الذين يضطربهم البؤس إلى فساد الخلق ووصف بيئة البائسين الذين يضطربهم البؤس إلى حياة ضيقة نكدية ولكنها لا تخلو من كرامة ووصف بيئات العمال الكادحين وبيئات الطبقات المتوسطة حين تعبت وتلهو فيما يمنعه أن يلتمس الإنتاج في هذه البيئة الفنية المترفة التي يمرضها الترف أو يضطربها إلى تكلف المرض والتي تذهب إلى المصايف فتستشفى أو تتكلف الاستشفاء وجه النهار وتنعم بالفراغ الفارغ الذي لا يغنى عن أصحابه ولا عن

الناس شيئاً سائر النهار ثم تقبل مع الليل على ألوان الإثم والفجور والخمر والميسر لا تنصرف إلا حين يريد الليل أن ينصرف عن الأرض ، ولم يكد كاتبنا هذا يصل إلى مدينته تلك ويرى الطارئین عليها من أصحاب الثراء والترف حتى ضاق بما

رأى وأنكره أشد الانكار وصور ضيقه وإنكاره في هذه الكلمة التي ذاعت عنه في إحدى المجلات فأسخت فريقتا من الناس ولكنها أضحت أكثرهم ، قال لبعض رفاقه يكفى أن تنظر إلى وجوه المترفين لتعرف أن الله عز وجل يزدري الثراء والترف إلى أبعد حد ممكن من الازدراء ، ولولا ذلك لما وضع الشراء والترف عند أصحاب هذه الوجوه القبيحة البشعة ولست أدري أكان وجوه المترفين في تلك المدينة من القبح والبشاعة بحيث صورها هذا الكاتب ولكن كلمته هذه أثارت في نفسى كثيرا من الخواطر حين قرأتها وضحت منها كما ضحك منها غيرى من الناس ، وليس يظننى أن تكون وجوه المترفين المسرفين على أنفسهم في الترف ناضرة أو عابسة ، حسنة أو قبيحة وإنما الذى يعينى وما أشك في أنه يعنى هذا الكاتب الفرنسى أيضا هو ضمير كل واحد من هؤلاء المترفين المسرفين فقد أحب أن أعرف أراض هذا الضمير أم ساخط ، أمطمئن هو أم قلق ، أباسم هو أم عابس! أمتعب هو أم مستريح ، ولست أدري كيف يرضى ضمير الرجل الحر إذا رأى صاحبه قد غرق في النعيم حتى أوشك النعيم أن يقتله والناس من حوله قد غرقوا في البؤس حتى كاد البؤس يسلمهم إلى الهلاك.

ولست أدري كذلك كيف يطمئن ضمير الرجل الحر حين يرى صاحبه مستوثقا من ثرائه يعرف أنه يستطيع أن ينفق منه بغير حساب والناس من حوله قد ضيق عليهم في الرزق حتى أن كثيرا منهم ليعجزون عن أن يجدوا ما ينفقون فيما يقيم الأود ويرد العاديات عنهم وعمن يعولون.

ولست أدري كيف يبسم ضمير الرجل الحر حين يرى صاحبه ينفق في ألوان السخف من المال ما يسد أقله وأيسره خلة أسر كثيرة لا تعرف حين يضمها الليل كيف تستقبل الصبح إذا كان الغد ، ولا يتعرف عائلوها حين يسفر لهم الصبح كيف يعودون عليها بما يصبرون به أنفسهم على الحياة .

ولست أدري آخر الأمر كيف يستريح ضمير الرجل الحر حين يصبح ويمسى لا يحس حاجة إلى جهد أو كد أو عناء والناس من حوله لا يعرفون كيف يتخففون أياما في العام من الجد والكد والعناء ولا كيف يخلصون لأنفسهم وأحبائهم أياما لا يجدون فيها لذع الحاجة إلى الكسب ولا تحس قلوبهم فيها الراحة من هذه الهموم الثقال التي تلح عليهم حين يصبحون وحين يمسون .

نعم لست أدري كيف يستمتع ضمير الرجل . الحر بالرضي والطمأنينة ، والابتسام والراحة ، وهو يرى الناس من حوله قد حرموا هذه الخصال ، وغرقوا في شقاء لا يعرفون له قرارا . فهذه الوجوه التي رأها كاتبنا هذا الفرنسي قبيحة بشعة يجب أن تكون قد استمدت قبحها وبشاعتها مما في نفوس أصحابها من البشاعة والقبح ، ليكن مصدر الثراء والترف ما يكون فإن من الحق على الرجل الحر أن يجد هذا الشعور الاجتماعي بالتضامن بينه وبين نظرائه في هذه الحياة أنه يفرع اليهم ليحموه من الخطر إن تعرض هو أو ثراؤه للخطر فالدول لا تجند الأغنياء وحدهم حين يغير عليها العدو وإنما تجند من المواطنين جميعا كل من استطاع أن يحمى الحوزة ويذب عن الوطن وما أكثر ما يحتال الأغنياء في إعفاء أنفسهم من هذا الجهاد الذي يرونه ثقيلًا ويراه الفقراء والبائسون وأوساط الناس فرضا محتوما والدول لا تتخذ من الأغنياء هؤلاء الشرط الذي يقرون النظام ويحفظون الأمن في أوقات السلم وإنما تتخذهم من أولئك الذين لا يشغلهم ثراؤهم العريض وترفهم المسرف لأنهم لا يجدون ثراء عريضا ولا ضيقا ولا يطمعون في ترف مسرف أو مقتصد والناس يدبرون لصاحب الثراء والترف ثراءه وترفه ، يعملون له في أرضه ليترف هو وليقنعوا هم بأضييق العيش كما يعملون له في مصانعه إن كان من أصحاب الصناعة وفي تجارته إن كان من أصحاب التجارة وفي تدبير أمواله السائلة إن كان من أصحاب الأموال السائلة ، لا يستطيع من غيرهم أن يثرى وأن يترف وليستطيع من غيرهم أن يستمتع بما يستمتع به من نعيم ثم هم يدبرون له هذه الألوان من الترف التي يتلقاها منهم غير آبه لها ولا حافل بها ، وما أعرف أني ركبت القطار أو السفينة قط فنعمت بالراحة في قطار أو سفينة دون أن أشغل نفسي بأمر هؤلاء الذين يسرون القطار والسفينة في البر والبحر وما أذكر أني

آويت إلى فندق في السفر، أو آويت إلى دارى في الإقامة ونعمت بما ينعم به الطاعن والمقيم دون أن أشغل نفسى بشى من أمر هؤلاء الذين يتيحون لى بعض ما أجد من راحة وروح إنهم يشقون ليتيحوا لى السعادة ويتعبون ليهيئوا لى الراحة ويتسمون ليعدوا لى شيئاً من نعيم.

وما أكثر ما نقرأ فى الكتب وما أكثر ما نسمع من الحكماء والفلاسفة وما أكثر ما يقول المعلمون لتلاميذهم أن الناس جميعا محتاجون إلى الناس جميعا ، ولكنه كلام نقرأه ونسمعه ثم لا يستقر فى نفوسنا إلا ليذهب منها مع الريح وما أقل الذين يقرون فى قلوبهم هذا الشعور بحاجة الناس إلى الناس ويقرون فى عقولهم أن التضامن الاجتماعى ضرورة من ضرورات الحياة ويتأثرون فى سيرتهم مع الناس بما يجدون فى قلوبهم من

شعور وما يدبرون فى عقولهم من تفكير ، يمكن إذن أن يكون وجه المترف حسنا أو قبيحا باسما أو عابسا مشرقا أو مظلما ولكن الذى ليس فيه شك هو أن ضميره لن يكون راضيا ولا سمحا ولا نقيا ولا مستريحا إلا إذا أدى للناس حقهم من هذا التضامن الاجتماعى فأشاع الرضى فيهم قبل أن يرضى ويسر النعيم لهم قبل أن ينعم وأعطاهم حظهم من السعة والراحة قبل أن يترف ويستريح .

فكرت فى هذا كله حين قرأت كلمة هذا الكاتب الفرنسى بل فكرت فى أكثر من هذا كله وفكرت فى ثورتنا المصرية التى جمجم بها الشعب وصرح بها كتاب الشعب منذ أعوام طوال والتى أعربت عن نفسها وجعلت تسعى إلى غايتها فى حزم وعزم لا تردد فيهما وفى جراءة وإقدام لا تلكؤ فيهما ولا إبطاء ثم جعلت أسأل نفسى أيتاح لى ولأمثالى من الذين طالبوا بتحقيق التضامن الاجتماعى الصحيح وأنكروا على المترفين إسرافهم فى الترف وعلى أصحاب الثراء العريض أن يستأثروا بثرائهم العريض وعلى الدولة أن تخلق بينهم وبين الإسراف والاستتثار، أيتاح لنا أن نرى مصر ذات يوم قبل أن تنقطع بنا أسباب الحياة وقد تحقق فيها هذا التضامن الاجتماعى صفوا من كل دنس خالصا من كل شائبة مبرا من كل غش أو دهان ، أيتاح لنا أن نرى مصر ذات يوم وقد انصفت الدولة كل محروم من كل مستأثر وكل عاجز من كل قادر وكل بائس من كل منعم فصفت ضمائر الأغنياء لأنهم أعطوا

ما فرض الله من الحق فيما أعطاهم من الغنى وأمنوا على ثروتهم لأنهم أدوا مخلصين صادقين ما يجب فيها من الحق فرضيت نفوسهم وأمنت قلوبهم واطمأنوا على ما في أيديهم لا يخافون عليه كيدا أو عدوانا .

أيتاح لنا أن نرى مصر ذات يوم وقد برئت قلوب أبنائها من الحسد والبغض والحفيظة والموجدة لأنهم جميعا يعملون ويجنون ثمرة ما يعملون لا يستغل بعضهم بعضا ولا يستذل بعضهم بعضا ، ولا يكيد بعضهم لبعض ولا يكر بعضهم ببعض وإنما يعيشون كما أراد الله للناس أن يعيشوا إخوانا متصافين يدبر الحب حياتهم ويظلمها العدل والأمن والاستقرار.

منى إن تكن حقا تكن أحسن امنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

طه حسين

البلاغ ، ١٩٥٢١٩٤